عز الدين التميمي*

ملاحظات حول أدب «الاعتراف» الإسرائيلي

بدلا من المقدمة:

يزهار سميلنسكي... بين السيرة والرواية

لا تجيء أهمية أقصوصة يزهار سميلنسكي، خربة خزعة[1]، من كونها فقط أول نص إسرائيلي عن النكبة من وجهة نظر غير تقليدية، ولا من كونها شهادة حقيقية كتبها مقاتل سابق فأثارت ما أثارته في الرأي العام الإسرائيلي، ولكن والأهم، لأن فيها كشفا خاصا وجديا عن تناقض بنيوي في معنى الأخلاق الصهيونية. ولا يقتصر التناقض المقصود هنا على المعنى الأولي، أي على الفجوة بين شعارات «المقاتل الشريف» و«السلاح النظيف» وبين عمليات الإبادة المنظمة على الأرض، ولكنه ينسحب إلى تصورات شاملة عن الحرب والقتل والخصم والأغيار. والأهم أن الأقصوصة لا تكشف تناقضا منفصلا عنها فحسب، ولكنها تكشف تناقضا يتمثل فيها، ويعبر عن أصناف كاملة من الأدب الإسرائيلي.

كتب النص سردا ليوميات مجموعة من الجنود المنظمين في العصابات اليهودية، في أواخر «حرب الاستقلال»، أثناء اقتحامهم لقرية فلسطينية، يسميها خربة خزعة، وهو اسم افتراضي. يصف الكاتب الذي كان جنديا في المعركة، سلوك العصابات وإجرامها من خلال عرض انفصالهم عن الجريمة، وانشغالهم أثناءها وأثناء التحكم بمصير سكان قرية كاملة، بنقاشات تافهة وبقضايا يومية. زمنيا، كتب النص الذي يقول عنه كاتبه إنه سيرة حقيقية، عن مرحلة تهجير القرى الفلسطينية الأخيرة.

وكما هي حال معظم النصوص النقدية في الأدب الإسرائيلي، وتحديدا النصوص التي يظهر فيها الضحايا الفلسطينيون، يجيء نص سميلنسكي على الحد الفاصل بين السيرة والرواية،

* صحافي وباحث في الشأن الإسرائيلي.

وكما هي حال معظم النصوص النقدية في الأدب الإسرائيلي، وتحديدا النصوص التي يظهر فيها الضحايا الفلسطينيون، يجيء نص سميلنسكي على الحد الفاصل بين السيرة والرواية، وفي المساحة التي تتقاطع فيها الحكاية/التجربة الشخصية مع الشأن الفني الموضوعي. وهي سنة لا ينفك الأدب الإسرائيلي يلتزم بها، كأنها تأكيد على أن ذكر الضحية الفلسطينية والاعتراف بوجودها، سيبقى مرتبطا بندم الإسرائيلي وبعذابات ضميره في أحسن الأحوال. وهو على أي حال، سيبقى الفاعل الوحيد، سواء مجرما أو نادما، وستبقى الضحية الفلسطينية موضوعا، لعقده النفسية.

وفي المساحة التي تتقاطع فيها الحكاية/التجربة الشخصية مع الشأن الفني الموضوعي. وهي سنة لا ينفك الأدب الإسرائيلي يلتزم بها، كأنها تأكيد على أن ذكر الضحية الفلسطينية والاعتراف بوجودها، سيبقى مرتبطا بندم الإسرائيلي وبعذابات ضميره في أحسن الأحوال. وهو على أي حال، سيبقى الفاعل الوحيد، سواء مجرما أو نادما، وستبقى الضحية الفلسطينية موضوعا، لعقده النفسية، من عقدة «الضحية الوحيدة وصاحبة الامتياز»، إلى عقدة الذنب. لذلك، لا يظهر الفلسطيني في النصوص الأدبية الإسرائيلية، غير الذاتية أو غير السيرية، إلا ما ندر. وحتى النصوص غير السيرية التي تتحدث عن الفلسطينيين، فإن معظمها يصر على تقنية السيرة في القص. أي أنها تعتمد على راو واحد، لا يحتاج النص إلى سواه على أي حال، يسرد عن الجميع ويحدد مشاعر الجميع ونواياهم.

وللمفارقة، يتكرر السؤال بشكل خاص في المجتمع الإسرائيلي عن علاقة الراوي بالروائي. وهو نقاش ابستملوجي في الأدب، يأخذ سياقا خاصا في إسرائيل حسب إسحق لاؤور مثلا،[٢] إذ تحتاج الرواية الرسمية إلى إسكات كل الأصوات الأخرى، وإلى راو عليم ووحيد يقوم بهذه المهمة.

وإذا كان هناك إضافة ممكنة، إلى مجادلة لاؤور، فإنها ستتعلق بالنصوص «غير التقليدية تحديدا»، التي لا تمارس إسكاتا فقط للفلسطينيين كما يفعل الأدب التقليدي، ولكنها تمارس نوعا من سرقة ألسنتهم، أي الحديث عنهم فوق منعهم من الحديث. إنها من خلال اعتمادها على السيرة وعلى الراوي الوحيد، لا تصادق فقط على إسكات هؤلاء، لكنها تأخذ أصواتهم وتحتكر الطريقة التي يمكن من خلالها التعبير عن المجزرة، من وجهة نظر شخصية وجزئية. عن الفرق بين التذكر والذاكرة.

«كل واحد يعرف أنه كانت هناك قرية، لكن ما من أحد يعرف أنه من بين ٦٠٠ قرية تم تدمير ٤٠٠. المعرفة ليست قائمة. إنها مرتبطة بذاكرة شخصية داستها الذاكرة العامة».[٣]

يعطي هذا الاقتباس من «اللغة الممزقة»، للاؤور، إضاءة على مجادلتين تدور حولهما هذه المداخلة. أولا أن الذاكرة الشخصية مصدر كل حديث عن المجازر، التي لا يشار إليها بالضرورة من خلال الذاكرة العامة المائلة إلى الصمت. والتفريق بين الذاكرة العامة والذاكرة الشخصية، في الأدب، ينزاح إلى التفريق بين السيرة وبين الرواية أو القصة مثلا. بين النص الذي يتحدث فيه الكاتب عن ذاكرته الشخصية، أو بين النصوص التي تنفصل عن حياته الخاصة، من خلال شخصيات مجردة وموضوعية تتحدث عن نفسها. وهو سبب من أسباب أخرى تجعل الحديث عن الضحايا الفلسطينيين كما قلنا، مرتبطا بالسيرة أو بأنماط سردية شبيهة. وهو سبب تتقاطع فيه المركبات الفنية والأيدولوجية.

الإضاءة الثانية في الاقتباس، متعلقة بالفرق بين التذكر والذاكرة. هناك حائل مستمر أمام تحول تذكر المجازر إلى ذاكرة. وهو حائل لا يرتبط فقط بسطوة الرواية الجماعية وسياسات النسيان، وإبطالها لتأثير الذكريات الشخصية. لكنه يرتبط بكون المجازر تعطى غالبا طوابع جزئية. يمكن فعلا أن يتذكر الإسرائيلي تجربته مع مجزرة معينة، في قرية معينة، وفي وقت معين، لكن نادرا ما يتم إعطاء هذه المجازر، أو هذه «الأخطاء» على أكثر تقدير، أي طوابع عامة. إنها تبقى بالنسبة لكثيرين شاركوا فيها مثل خطأ شخصي، كأن تتذكر أنك قمت في وقت ما بسرقة أو بقبول رشوة. غالبا، لن يخبرك أحد أنه ارتكب هذا الخطأ لأنه كان جزءا من مشروع كامل، يقوم وجوده أصلا على هذا «الخطأ».

في الحالة الطبيعية، سيكون أسهل أن تعترف بالجريمة باعتبارها خطأ عاما، لا يتعلق شخصيا بمرتكبه، ويتعلق بالسياق العام. في هذا النوع من الأدب، يسير الاعتراف إلى نزعة عكسية،

هناك حائل مستمر أمام تحول تذكر المجازر إلى ذاكرة. وهو حائل لا يرتبط فقط بسطوة الرواية الجماعية وسياسات النسيان، وإبطالها لتأثير الذكريات الشخصية. لكنه يرتبط بكون المجازر تعطى غالبا طوابع جزئية. يمكن فعلا أن يتذكر الإسرائيلي تجربته مع مجزرة معينة، في قرية معينة، وفي وقت معين، لكن نادرا ما يتم إعطاء هذه المجازر، أو هذه «الأخطاء» على أكثر تقدير، أي طوابع عامة. إنها تبقى بالنسبة لكثيرين شاركوا فيها مثل خطأ شخصي، كأن تتذكر أنك قمت في وقت ما بسرقة أو بقبول رشوة.

أي يفضل المعترفون جلد ذواتهم على جلد السياق أو المشروع الذي ينتمون إليه.

بهذه الطريقة. ستظل محاولات التذكر الشخصية، محاولات للتطهر النفسي، ما لم تتحول إلى ذاكرة عامة. وستبقى مجرد شواهد منزوعة من سياقها، كأنها من زمن غير هذا الزمن، وكأنها عن مخلوقات غريبة لم تعد موجودة. عندما يترتب على التذكر استحقاقات واضحة، وهذا لا يحدث مع كل ما سبق، فإنه سيتحول إلى ذاكرة، بغض النظر عن سطوة الإنكار الجماعي لها.

الحاجة إلى الاستثناء للتأكيد على القاعدة

بعد سنوات، كتب الشاعر الإسرائيلي، نتان ألترمان قصيدته المعروفة في العامود الخامس من صحيفة دفار، يصف فيها مشهدا من مجزرة اللد. (الحديث سيكون دائما عن مشاهد. إنها تقنية الاقتطاع الدائم من السياق التي تكتفي بأخذ «اسكتشات» جزئية من المجزرة). الأهم أن بن غوريون احتفى بها، وقام بتوزيع القصيدة على الجنود. من هنا يمكن الحديث عن السلوك الذي انتهجته إسرائيل مع النقد، والذي نجح في أن يكون سلوك دولة طبيعية على أي حال. هذا ما يجعل حتى لاؤور عندما أراد تفسير تصرف بن غوريون، يقول إن كل السلطات (وإسرائيل جزء من هذا الكل) تصمت حيال الجرائم التي ترتكب باسمها، وتطالب على الأقل بمحاكمة الجرائم التي لا ترتكب باسمها (هل هناك جرائم وقعت خارج اسم إسرائيل؟ هنا يتم التجزيء مجددا). وهو هنا يستعير تحليل فيبر المشهور عن كون الدولة جسما يحتكر العنف الشرعي. وعلى ما يبدو، صار كل نقد لسلوك إسرائيل مضطرا للمصادقة أنها تتصرف كدولة.

المهم أن بن غوريون هنا، تعامل مع القصيدة، بغض النظر، إن كانت كتبت بطلبه أم لا، تعامل إدارة سياسية في دولة حديثة فعلا. هذا قد يفسر لماذا لا يكون نقد مثل هذا لأهم رموز الوطنية الإسرائيلية، أي الجيش، مزعجا؟ ببساطة لأنه تحول من نقد مفترض أن يكون أخلاقيا وبنيويا، أي يمس الأخلاق والقيم، ويمس شرعية وجود الدولة، إلى نقد بيروقراطي، يرتبط بطريقة أداء الأشياء. بالتالي فإن «الجندي المجرم» هو موظف سيء على أكثر تقدير، ولا يعبر أبدا عن الفكرة الكبرى.

على العموم، فإن فهم القصيدة باعتبارها نقدا ذاتيا، وهي كذلك، يأتي في سياق التأكيد على التفاصيل، والهروب من الطابع العام. في هذا الفهم، هناك تأكيد على كون العجوز الذي قتل في القصيدة، والجندي «صاحب أسنان الحليب» الذي قتله، هما حالة استثناء. وهنا تبدو المقولة عن كون القصيدة كتبت بإيعاز من بن غوريون مقنعة، لأن هناك حاجة دائما إلى التأكيد على القاعدة، من خلال التأكيد على الاستثناء، وهذا لا يتم إلا من خلال ذكره بالضرورة. هناك اعتقاد مختل منطقيا، مفاده أن التأكيد على كون قتل العجوز هو سلوك غريب، من خلال نقده، يؤكد على طبيعة السلوك «السوي»، أي الجندي الخلوق والسلاح النظيف.

خوف من الدم أم خوف عليه؟

عودة إلى «خربة خزعة»، واستمرارا في الحديث عن قصيدة ألترمان، يجد القارئ مؤشرات عديدة، على أن النصين، وعلى أن القلق فيهما والندم والاعتراف بالخطأ، إلخ. لا تتعلق كلها بالفلسطينيين أنفسهم ولا بمصيرهم وبإنصافهم. إنه على ما يبدو نوع من الخوف على الصورة الإسرائيلية المزعومة والنظيفة. ليس في الخوف الظاهر في النصين من «خطأ» إراقة الدم، أي مسؤولية إزاء الضحية، ولا خوفا عليها، بقدر ما هو خوف منها، أي خوف

وبغض النظر عن كل الجرائم التي تلغي ادعاءات الأخلاق المزعومة، يمكن القول إن الحرص نفسه على الأخلاق تحول في هذه الحالة إلى سلوك غير أخلاقي، لا يرى الإسرائيلي من خلاله إلا نفسه ولا يأبه إلا بها. وتقييم الآخرين وسلوكه ضدهم يرتبط فقط برؤيته لنفسه وباتساقها مع المعايير المثالية والكبرى.

من أنها تتعارض مع القيم الإسرائيلية ومع قيم الجندي الشريف، ومن كون السلاح الإسرائيلي سيتسخ، حرفيا، بالدم الفلسطيني. خوف من «الانحراف» لا على ضحاياه.

وبغض النظر عن كل الجرائم التي تلغي ادعاءات الأخلاق المزعومة، يمكن القول إن الحرص نفسه على الأخلاق تحول في هذه الحالة إلى سلوك غير أخلاقي، لا يرى الإسرائيلي من خلاله إلا نفسه ولا يأبه إلا بها. وتقييم الآخرين وسلوكه ضدهم يرتبط فقط برؤيته لنفسه وباتساقها مع المعايير المثالية والكبرى.

صحيح إن إلغاء الفلسطينيين ورد في النصين أكثر من مرة، في نص يزهار كان هناك إشارة إلى أن المستقبل العبري الموعود قائم على تهجيرهم، أو إلى خلو المكان منهم (في المشهد النهائي من النص)، وكذا في القصيدة، التي تطرق إلى القتل بصورة مباشرة، لكن كل هذه الإشارات ترافقت مع إحساس بالقلق من أن الجنود يفقدون أخلاقهم السامية، وكان القلق المتعلق بمصير الفلسطينيين مثلا ضئيلا جدا، إن لم يكن مختفيا. وحتى في المشهد الأخير من الأقصوصة، فقد انشغل الكاتب وهو يرى الناس يغادرون، بمستقبل هذا المكان الذي سيبنى على التهجير والقتل، لا أين سيذهبون أو كيف سيعيشون.

وعلى عكس الانطباع الأول والرائج، فإن عدم ذكر اسم القرية بالتحديد في خربة خزعة مثلا، والاكتفاء باسم افتراضي، قد لا يفهم باعتباره إشارة إلى أن الجريمة عامة ومتشابهة في كل المواضع، كما ذهبت بعض القراءات، (فكل أحداث الرواية تريد أن تقول إن ما وقع قد وقع في ظرف خاص). ولكن يمكن فهمه باعتباره تقليلا من شأن الضحية مجددا. يمكن أن يذكر الروائي الإسرائيلي بالتفصيل اسم الوحدة المخصصة للعملية، وأسماء الزملاء، وحوارات سخيفة وطويلة صارت بينهم، وسيبقى الفلسطينيون وستبقى قريتهم خلفية مجردة حتى للأخطاء الإسرائيلية. والنص بالتالي يمثل رواية القاتل عن نفسه، رواية لا تترك أي مكان للضحية.

أخطر ما يترتب على النقاش الإسرائيلي الإسرائيلي حول الضحية الفلسطينية إذن، مرتبط بكونه نقاشا عن الضحية، لكنه لا يتعلق بها، أو عن الضحية لكنه ليس لأجلها. بكلمات أخرى وأوضح، فإن النقاش يتحول إلى شأن داخلي وخاص، ولا يرتبط الهدف منه لا بالفلسطيني ولا بإنصافه. إنه نوع من المراجعة الذاتية في أحسن الأحوال.

بدلا من الخاتمة

بين يزهار وحنا أرنت... «الشرير عادي» والضحية هو الاستثناء.

للمفارقة، فإن ما كتبته حنة أرنت، في كتاب إيخمان في القدس[٤]، وتحديدا تحت عنوان «تقرير عن عادية الشر»، مشابه جدا لما كتبه سميلنسكي، وإن كان تشابها ينضوي على خلاف جوهري، أساسه الموقع من القوة. لكن على العموم، فإن المجرم في النصين، يمارس الإجرام باعتباره حدثا يوميا. وفي النصين يجري القتلة حوارات روتينية وعادية جدا. من حوارات الموظف النازي مع زوجته، إلى أحاديث الجنود الإسرائيليين عن النساء والحيوانات والجو.

تمارس أرنت من خلال التذكير بكون المجرم عاديا، نوعا من «المقاومة الكلية» على حد تعبيرها، أي نوعا من فرض الشروط الإنسانية على العنف. وهي وإن فُهمت خطأ وأثارت سخطا واسعا، فقد اتسقت مع موقفها النظري إجمالا حول العنف والسياسة والتواصل.

أهم ما في موقف أرنت، أن الشرير ليس استثناء. وعلى كل، فقد انشغل جزء من الأدب الأوروبي في مرحلة ما بإقناعنا أننا كلنا مهيأون، بفعل صدفة ما، إلى أن نكون أشرارا. هناك فكرة خاصة وشبيهة بذلك تظهر في قصة أرنت، مفادها أن الشر لا يتعلق بتصورات الشرير عن نفسه، فهو رجل عادي ويحب أطفاله

أخطر ما يترتب على النقاش الإسرائيلي الإسرائيلي حول الضحية الفلسطينية إذن، مرتبط بكونه نقاشا عن الضحية، لكنه لا يتعلق بها، أو عن الضحية لكنه ليس لأجلها. بكلمات أخرى وأوضح، فإن النقاش يتحول إلى شأن داخلي وخاص، ولا يرتبط الهدف منه لا بالفلسطيني ولا بإنصافه. إنه نوع من المراجعة الذاتية في أحسن الأحوال.

ويقرأ الكتب ويشعر بالملل. لكنه يرتبط بتصورات الشرير عن الضحية. وهذا هو موضع الربط مع الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين بالضبط.

في الجزء الثاني من مشروعه، الإنسان الحرام[٥]، يوضح الفيلسوف الإيطالي أنه غالبا ما يتم التمهيد لعمليات الإجرام من خلال تعرية الضحايا قانونيا وأخلاقيا. بمعنى إخراجهم من الأحكام الطبيعية، مثل الشر والخير، الصواب والخطأ، إلخ. وبالتالي فإن الشر «العادي» الذي يمارس ضدهم، لا يخضع من وجة نظر مرتكبيه إلى كل هذه المعايير. وبهذا المنطق، فإن عمليات إبادة جماعية منظمة، لن تؤثر على القيم العليا لمرتكبيها، فالضحايا خارج الأخلاق أصلا.

في حالة يزهار سميلنسكي، وحتى عندما يشعر المجرم أن هناك خللا ما يواجه منطقه الأخلاقي، فسيكون الضحية خارج هذه الحسابات أيضا. إنه عتب على الذات وليس له علاقة بسواها.

الهوامش

١ يزهار سميلانسكي. ترجمة توفيق فياض (١٩٨١). خربة خزعة. بيروت: دار الكلمة.

٢ إسحق لاؤور ٢٠٠٢ «اللغة الممزقة» ، في أنطوان شلحت (محرر) ذاكرة دولة وهوية : دراسات انتقادية حول الصهيونية وإسرائيل، ص ٨٥–١٤٢.

٣ المرجع السابق. ص٩٥

٤ حنة أرنت. ترجة نادرة السنوسي (٢٠١٥) إيخمان في القدس... تقرير حول تفاهة الشر. القاهرة: دار الروافد للنشر والتوزيع.

٥ جورجيو أغامبين. ترجمة ناصر إسماعيل (٢٠١٥) حالة الاستثناء. مدارات للتوزيع والنشر.